

الأصول الجمالية في الدراسات النقدية عند شوقي ضيف

د. محمد عزيز نظمي

نستهدف من عرض هذا البحث - في مناسبة تكريم رائد من الرواد، تسجيل صفحات مجيدة مزدهرة عن أصالة هذا الرائد، من خلال إبداعاته العبقريّة، في مجالات التراث واللغة والأدب والنقد، خلال حقبة تاريخية تركت بصماتها، على تاريخ الفكر والأدب والحضارة في مجالات الثقافة المصرية.. وإنا نحن نحس بادرة الوفاء هذه، والعطاء الذي بذله أستاذ الأساتذة، فكان بمثابة نبع فياض ثرى على بلده وأمته.

وإنا نتبين كذلك بموضوعية، وحياد علمي، تلك الإضافات الواضحة في تاريخ الثقافة، التي كان لرائدنا الفضل كل الفضل فيها، فكان ذلك باعثاً على حركة التجديد، والأصالة، مما يجعلنا بداية نفخر ونعجب بتلك المحاولات الجادة والجديدة التي قام بها.

ومن ثم يتعين علينا أن نضع قضية التراث والتجديد في تاريخنا الأدبي والثقافي، في وضعها الصحيح، فلا نتجاهل مآثره من مآثره ونقرر في حياد وأمانة أن ابن مصر، وليس ابن دمياط فحسب قد حمل مشعل الثقافة، ولواء الأدب والنقد طوال سنوات من تاريخ مصر، عالياً وكان دوره الرائد مشهوداً بعلمه وبفضله.

ولعل السمة الظاهرة في دراسات رائدنا الأستاذ الدكتور شوقي ضيف هي الأصالة من ناحية، والتجديد من ناحية أخرى، تلك كانت السمة الواضحة المعالم والتي تتبدى لمن يعين النظر في سياق دراساته ومنهاجه النقدي.

ويتعين على الدارس لتراثه أن يستقرى منهاجه الواضح من خلال دراساته، وإبداعاته في مجالات التراث والأدب، وتاريخه والدراسات النقدية والتراجم، ومنه اللغة والبلاغة، وقد أثرنا تحديد الموقف منذ البداية ومنذ أن أخرجنا دراستنا المتواضعة في مجال الاستطيقا، بعد الدراسات الجمالية وفلسفة الفن أن نتابع تلك الجهود الخلاقة والتفسيرات الجادة التي تتميز بالموضوعية

والربط بين الأصالة، والمعاصرة من ناحية أخرى. وبهذا المعيار حاولنا جاهدين أن نطبقه على إبداعات رائدنا في دراساته الأدبية والنقدية. فتيبنا منزلته، وأصالته، والتي تتضح أمامنا بجلاء، في محاولة استكشافنا للأصول الجمالية (أعني الاستيطيقية) لدراساته النقدية، وتفسيراته لمذاهب النقد والأدب العربي قديماً وحديثاً، وسنبين أيضاً النزعة التكاملية في المنهاج النقدي لديه، التي جمعت بين النظرة الفنية والتاريخية في شمول واتساق عضوى، تتجاوز مفهوم البنائية وأنساق الثقافة، فهو يؤكد الصلة العضوية بين الشعر والتصوير التشكيلي، والموسيقى، وكأننا أمام رأى عالم الجمال الفرنسى «أتين سورويو» الذى يؤكد ارتباطات الفنون الجميلة جميعاً فيه، فيتجاوز بذلك مفهوم محاكاة المحاكاة فى الفن، كما قرره من قبل كل من أفلاطون وأرسطو إلى مفهوم آخر، هو الارتباط أو التكوين العضوى بين روافد الفنون الجميلة، بما فيها فنون الأدب المختلفة (من شعر ونثر وقصة وخطابة الخ...) إلى مفهوم جديد يستند إلى روابط ثلاث:

١ - الرابطة الأولى وتتحدد فى الخيال الإبداعى المستوحى من وجدان الفنان وخبراته الحسية واللاشعورية.

٢ - الرابطة الثانية: وتتحدد فى الرؤية الجمالية والصور والمشاهد المستوحاة من الطبيعة أو الخيال.

٣ - الرابطة الثالثة وتتحدد فى الإلهام أو الحدس الجمالى، والإشراق المعبر عن كيفية إدراك الصورة الجمالية الخلاقة أو المبدعة، التى تمر بمراحل أربع، تبدأ بالإعداد، أو التحضير، ثم بالحضنة، أو التمهيد والاستغراق، ثم بالإشراق، ثم بالتعبير أو التنفيذ.

كما نجد أستاذنا (ضيف) يحدد منهج الحكم الجمالى على الأثر الفنى من خلال الذوق المتمرس الخبير المستوعب، لأصول التقنية الفنية وعناصرها الجمالية، وحدى وسائل صياغة التجربة الجمالية فى ضوء ثلاثة محاور أو معايير أو مقاييس:

١ - أول هذه المقاييس هو البعد أو المحور التاريخى والعصر الاجتماعى.

٢ - ثانى هذه المقاييس هو البعد، أو المحور الفنى، أو الجمالى المعبر عن تطور المضمون والمحتوى، وكذا الشكل أو الصيغة فى إطار لغة التعبير سواء أكانت أنغاماً أم ألفاظاً أم ألواناً.

٣ - ثالث هذه المقاييس هو البعد، أو المحور الرابط الحضارى بين التراث أو الأصالة، وبين التجديد أو الحداثة أو المعاصرة.

ويمكن القول بأن (الدكتور ضيف) قد رسم معالم الطريق إلى علم جمال أدبي عربي، من خلال دراساته النقدية للنماذج الفنية حيث وضع القواعد والتأصيل النظرى لها ممثلاً غنياً عرضه بمؤلفاته القيمة عن مذاهب النقد والفن والشعر والنثر، ودراساته عن البحث الأدبي ومناهجه.

ويكفى أن نستوعب إشارته حول تطور الفكر الجمالى بداية من أفلاطون الذى ذهب إلى أن كل جمال حسى، أو إبداعى، أو عقلى مرده المثال الخالد في إطار نظريته عن عالم المثل والجمال المطلق، بينما ذهب أرسطو إلى القول بأن الجمال يتمثل في تناسق التكوين، ثم ساد في العصر الحديث المفهوم القائل بأن الجمال هو ما يتعلق بالإحساس، أو بالشعور دون الخلط بينه وبين المنفعة، أو الأخلاق فتحددت بذلك معانى الجمالى بوضوح في مصطلح الاستطيقا Aestherica على يد الفيلسوف الجمالى الألماني جوتليب مجارتن (١٧١٤ - ١٧٦٢)، ثم تعددت الدراسات الجمالية على يد كانت وهيجل، وشوبنهاور، وجويه، وكروتش، وتين، وتولستوى، وسانتيانا، ودبوى وغيرهم.. وعندما يؤصل الأستاذ ضيف كنه نظيره الجمالى أنه من الضروري أن تستند التفسيرات النقدية على أسس واضحة ومحددة، من خلال البعد التاريخى لتطور النقد الأدبى، منذ أرسطو الذى يرى أستاذنا أنه يكاد ينفرد بمنهجه العلمى الدقيق في محاولة لوضع نظرية كاملة للمأساة أو التراجيديا، وتمتد الدورة الأولى للنقد الأدبى حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى، وتتميز هذه المرحلة بإشارات وملاحظات مبهمة غامضة تخلب الأسماع، ولكنها لا تجعل العقول تصغى إليها، بينما تبدأ الندوة الثانية، أو المرحلة الثانية مع مستهل القرن التاسع عشر الميلادى، حيث يحاول النقاد وضع نظرية نقدية ذات صبغة منهجية علمية، من منطلق العلوم الطبيعية أو الفيزيائية، فأقاموا ما يمكن أن نسميه (بالتاريخ الطبيعى للأدب) وطبقوا تصنيفات وتقسيمات الطبيعية على فنون الأدب، متأثرين بالتطورية الدارونية من ناحية، ومذاهب وقوانين الحضارة والبيئة والجنس والعصر من ناحية أخرى، بل أفسح المجال أيضاً للدراسات السيكلوجية والاجتماعية من خلال التفسير الفرويدى، للظاهرة الأدبية أو الفنية، وكان لكل هذه المؤثرات أثره الواضح في نشأة النقد، وتطور مناهجه وتحليل الأدب والتراجم الأدبية من خلال تفسير معنى الفن والقيمة الجمالية، وخصائص الشعر والموسيقى، والتصوير ووسائل التعبير، أو الصياغة والأوزان فتجاوز النقد المفهوم الثلاثى للبناء الفنى للأدب من ثلاثية وحدة الزمان والمكان والموضوع، إلى أنماط جديدة تمثل في النتاج الفنى للقصة والمسرحية والقصيدة.

ومن خلال عرض أستاذنا الرائد لنشأة النقد وتطوره يبدأ بالحضارة اليونانية - وإننا نعرض رأيه مع شيء من التحفظ - فعلى حد قوله «إن اليونان أسبق القدماء إلى وضع أصول

النقد وقواعده، جعلهم ينتجون الفلسفة ومجالات أخرى من المعرفة، بدأ بنتاج الشعراء القدامى في ملاحهم الأسطورية ويطولاتهم الخارقة، مع هوميروس إبان القرن التاسع ق.م. في الإلياذة والأوديسة، ثم عند هيزيود في القرن الثامن ق.م. وكان العهد الأول لتاريخ الفن الأدبي، هو الرواة، ثم التدوين الذي أبرز الشعر التمثيلي إبان القرن السادس ق.م. حيث تعدى وصف الشعراء حياة الآلهة والأبطال إلى الحياة العادية وموضوعاتها الاجتماعية. والسياسية، والفلسفية، فيها هو ذا اريستوفانيس يؤلف ملهاته (السحب)، ممثلاً الصراع بين الفكر والدين الوثني للعامية، ثم يتابعها بمسرحية (الضفادع)، مجسماً الصراع بين القديم والجديد أو بمعنى آخر صراع الأجيال على لسان شخصياته المحورية اسخيلوس وبوريديوس، ومع إطلالة القرن الخامس ق.م. يرقى الفكر العقلاني الفلسفي فيكثر الجدل والسفسطة، ونجد محاورات سقراط ثم أفلاطون بين جموع الفلاسفة، والسوفسطائية، تنتهى بمحاولات أرسطو لوضع كتابه البيوطيقا، أو الشعر، ثم الريطوريقا أو الخطابة متابعاً بذلك ما كتبه أفلاطون في محاوراته ايون، والجمهورية، وقولنا بالتحفظ السالف الذكر مرجعه أن الأدب المصرى القديم كان نبعاً للأدب اليونانى.

ومن خلال العرض التاريخي لتاريخ النقد الأدبي، يطلق رائدنا الدكتور شوقي ضيف على النقد الأدبي العربى فى تلك الحقبة قوله.. «إن النقد العربى كان فى جملة نقدًا عملياً يتصل بالجزئيات ولا ينفصل عنها.. فقد كان محوره غالباً البيت والعبارة، ولم ينظروا فى الأدب، أو الشعر نظرة عامة، بحيث يمكن القول أن نشاطهم النقدي كان أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد الخالص.. ومن الصعب أن نجعل لهم فلسفة جمالية، أو نظريات نقدية بالمعنى الدقيق...».

وفى مجال المقارنة لتاريخ الأدب فى العصور الوسطى بإيطاليا وفرنسا، يذكر أستاذنا الدكتور أن الأدباء تقيّدوا تقييداً شديداً خلال القرن السادس عشر، والسابع عشر فيها يختص بفن المسرح وقواعده، ثم خضعوا للقواعد الكلاسيكية وأصولها الدراسية، ثم ظهر فى القرن الثامن عشر نزعتان من النقد: نزعة تراثية تستند إلى قواعد وأصول الأدب اليونانى، والتقيّد بقواعد أرسطو، ونزعة أخرى مغايرة مجددة ظهرت على يد «جراى» (١٧١٢ - ١٧٧١م) بإنجلترا بحثاً عن آداب عصره، والتغنى بالطبيعة وعلى يد ديدروا بفرنسا (١٧١٣ - ١٧٩٤) داعياً إلى نبذ التراث والتقاليد القديمة، بينما ظهرت على يد علماء الجمال المعاصرين الذين ساروا بالدراسات الجمالية سيرةً كبيراً.

وسبق التنويه إلى أن أستاذنا ضيف أقام منهج التحليل النقدي والتقييم الجمالى Jugewani de Valuera على أساس استيطقي، استنبطه من افتراضين جماليين:

الفرض الأول: وهو الوظيفية في الفن في إطار السمات الجمالية، أو العناصر الجمالية الخالصة، بفضل قوى التفكير التي تهدينا إلى الحقيقة وقوة الإرادة التي تهدينا إلى الخير، وقوة الإحساس التي تهدينا إلى المتعة الجمالية: أو بمعنى آخر تكامل المفهوم القيمي للجمال، فعارض بذلك النزعة القائلة، بأن الفن للفن كما عارض النزعة القائلة بالمنهج التأثري، كما عارض أيضا أصحاب النزعة الموضوعية في الفن، وأكد من جهة أخرى الأصول الجمالية أو القيم الجمالية بصفة خاصة والقيم بصفة عامة.

الفرض الثاني وهو التكاملية في الفن في إطار الإفادة من المناهج المختلفة، والنزعات المتعارضة، ما بين النزعة السيكلوجية التي تنظر إلى ممارسات الفن لتجارب مستقلة، نتيجة المعاناة لدوافع نفسية، أو نزعة اجتماعية نرى الالتزام في الفن لقضايا اجتماعية، تتوافق منها حرية الفنان والزام المجتمع له في وحدة متسقة، تجعل من الناقد يعين من كل هذه الطرق والنزعات في تفسيره، وتحليله، وتقويمه للعمل الفني في إطار متوازن بين الفن وقيمة الجمال، مع الدافع المعاش وقيم الحياة بما يتحلى به الناقد، من عدالة وأمانة فيضع موازين عادلة لا تميل مع الهوى، أو التعصب وليس أدل من عبارة يسوقها أستاذنا ضيف قوله «... والناقد الحق لا يرفع شيئاً فوق قيمته ولا ينزل شيئاً دون قيمته...».

ويخلص أستاذنا إلى وضع قواعد تقويم العمل الفني على أساس استيطقي آفاقه الحياة، وقوامه الخبرة الجمالية، وسبيله الذوق، ولكي يدلك على نظريته، يطوف بنا بين آراء الجمالين، أمثال جريو، وبوبهارتن، وكانت من خلال تحديد مواقف المدارس الفنية، كالرومانسية، والكلاسيكية، والرمزية، والسريالية، والتأثيرية، والتعبيرية.

وفي مجال الاستشهاد بأمثلة يتناول أستاذنا نظرية الشعر، فيقرر بقوله «وليس معنى أن شعراءنا المعاصرين، ينفصلون عن أسلافهم، وتقاليدهم الفنية الموروثة، فما يزال السابقون منهم يحتفظون بشخصية شعرا، ومقوماته اللفظية، مع التمثيل الدقيق للشعر العربي، وأنماطه فهم مجددون وفي الوقت نفسه متصلون بالقديم، ألهتهم لها ثقافتهم وشعورهم وبيئاتهم وعصورهم ومواهبهم، التي تعبر عن شعوبهم، ومثلها العليا من الخير والحق والجمال. وبذلك لم يعد الشعر عندنا ألفاظاً ترصف رصفاً لتؤلف قصيدة في موضوع تقليدي، بل أصبح عملاً أدبياً جديراً بالعناية والاهتمام لما يتضح فيه من ذات الشاعر وتراث أمته...»، ويستطرد بقوله «ومن المحقق أن الذين تعمقوا في الآداب الغربية، واستمدوا منها في بعض منها صوراً من شعرهم، ولكنه من المحقق أيضاً أنهم لم يفنوا أنفسهم فيها. بل ظلت لهم شخصيتهم العربية...» وهذا يؤكد أستاذنا الملامح والسمات المميزة للفن والأدب، من خلال البعد التطوري في تاريخ الأدب. من قوله «... ومن المعروف في تاريخ الآداب من عصر من عصورها في أمة من الأمم، لا يمكن أن ينقسم عن

العصور التي سبقتها، وكأن هناك تياراً شائناً خلف العصور المتعاقبة، يعمل في القديم ولا يزال يعمل في الجديد، فكل أدب له ماضٍ يبنى عليه يد الحركة الدائبة في الآداب، إذ يحى كل جيل ما سبقه من أجيال لا من الناحية الجمالية وحدها بل أيضاً من ناحية الأفكار والمشاعر...».

ويشير أستاذنا إلى أهم وأبرز عناصر الجمال الفني فيما يلي:

أولاً: الوحدة العضوية للعمل الفني.

ثانياً: التطابق بين الصورة والمضمون في العمل الفني.

ثالثاً: خصوبة الخيال الإبداعي في العمل الفني.

رابعاً: الأصالة في بلورة العمل الفني.

خامساً: دعم القيم الإنسانية في العمل الفني.

ثم ينتقل أستاذنا إلى الوسائل الإعلامية للأدب وفنونه من خلال الصحافة والفن السينمائي والمسرحي والقصصي، وهو بذلك يعطى أبعاداً لوسائل ذبوع وانتشار الأدب وفنونه المختلفة.

نظرة تقويمية:

يشغل النقد الأدبي والدراسات البحثية، والتحليلية لبعض النماذج الأدبية والتراجم الشخصية لبعض الشعراء القدامى، والمحدثين التي تناوها أستاذنا الدكتور ضيف بالدراسة والبحث، مجالاً واسعاً في دائرة بحوثه ومؤلفاته، ولكن أبرز ما ضمنته هذه الدراسات النقدية أساساً استيعاباً، أى جمالياً لكثير من النظريات والمذاهب النقدية، اتضح في تلك الأبعاد والمحاور والأسس والقواعد التي أقام عليها دراساته، فكانت بذلك إرهاباً أو تهيداً ومدخلاً طبيعياً لعلم جمال أدبي، له أبعاده وموضوعاته وتقنيته، التي يمكن للمشتغل بهذا المجال أن يستنبطها استنباطاً علمياً وتطبيقاً.

ويحذر التنويه إلى أن ما يتعدى للدارس في نطاق النقد الأدبي أنه أقام نموذجاً يحتذى به عند الدراسة التحليلية لفنون الأدب، قدمه أستاذنا الدكتور شوقي ضيف، كما أن منطلق هذه الدراسات الموضوعية بأجل معانيها وخصائصها، التي يتعين على الدارسين أن يضعوها نصب أعينهم عند الدراسة والبحث، وما لا شك فيه أن ارتياد أستاذنا لبعض مسائل وموضوعات علم الجمال الأدبي، يعتبر إرهاباً طبيعياً لتنظيم علم جمال أدبي عربي، كانت الدراسات النقدية والأدبية في أمس الحاجة إلى قيامه.

وأخيراً ونحن في نهاية المطاف وبعد سفر طويل ومتعدد الاتجاهات بين فنون الأدب، نرى

إضافة وإبداعاً ومنظوراً جاداً وجديداً ألا وهو البعد الجمالي أو الأستطيقى، لأستاذنا الرائد الدكتور شوقي ضيف. له منا ومنكم أسمى التقدير وأجل الإعزاز لعمله الممتاز الإبداعى، ولشخصه الكريم وجهده العلمى الأصيل، له منا التقدير والتكريم.

د. محمد عزيز نظمى سالم

أستاذ علم الجمال المساعد

جامعة الزقازيق - فرع بنها

كلية الآداب والتربية